

أقدم شعر في التاريخ كتبه إمرأة من بلاد ما بين النهرين قصائد الشاعرات تجول في بحور المشاعر والحياة



الشاعر هنري زغيب.

لطالما كانت المرأة المصدر الاول للالهام الشعري، ولكل قيم ومعاني الجمال والخير والحب والفضيلة منذ فجر الانسانية، كما هي الشاعرة التي يتميز نتاجها الشعري بقوة الوجدان وغنى العاطفة، وبالتالي الاكثر تأثيرا في المتلقي. وهي اول من نظم الشعر، وفق دراسات كشفت عن اقدم كتابة موثقة تعود الى 3400 سنة قبل الميلاد في سومر

جالت قصائد الشاعرات عبر التاريخ في بحور الغزل والحب، والبعض منهن ذهبن الى الهجاء والمديح في شعرهن بالإضافة الى الفخر والحماسة، وثمة من كتب ايضا في العتاب والشكوى. الا انه تم اهمال او نسيان الكثير من الشاعرات على مر العصور، من قبل اولئك الذين درسوا الشعراء. ومع ذلك، قدمت بعض النساء مساهمات كبيرة في عالم الشعر.

قبل اكثر من خمسة الاف عام، بدأ الناس الذين يعيشون في سومر، بلاد ما بين النهرين، بحفظ سجلاتهم باستخدام الكتابة المسمارية، وهي اقدم نظام معروف للكتابة. بعد ظهور هذه الكتابة بنحو الف عام، بدأت امرأة كانت تدعى "انهدوانا" باستخدام نظام الكتابة هذا بطريقة مبتكرة، فنصوصها الفريدة تعد اقدم مثال معروف للكتابة من منظور ذاتي بصيغة المتكلم.

اعاد علماء الاثار البريطانيون اكتشاف نسخ من اعمالها عام 1927، لكن تطلب الامر عقودا ليعترف العلماء بانهدوانا. الثقافة السائدة انذاك كانت لا تحبذ ان تقرر الكتابة او التأليف بالنساء، لكن

رغم ذلك كان لعمل انهدوانا تأثير مديد، وعلى مدار قرون بعد وفاتها، بقيت قصيدتها "تمجيد انانا" نسا مهما في مدارس المخطوطات. يمكن القول، ان القصيدة اصبحت جزءا من النصوص المعتمدة المتعارف عليها بوصفها مناهج اساسية، درست على مدار اكثر من 500 عام من وفاتها في مدارس المخطوطات.

في هذا السياق، اجرت "الامن العام" حوارا مع مدير مركز التراث اللبناني في الجامعة اللبنانية الاميركية الشاعر هنري زغيب عن اقدم شعر في التاريخ واهمية هذا الاكتشاف.

■ ما الذي يميز كتابة المرأة للشعر عن كتابة الرجل؟
□ حين تكتب المرأة الشعر تصبح القصيدة اكثر انوثة لأن مشاعرها لا يمكن ان ينقلها الرجل الشاعر كما تنبض وتحس بها المرأة. ان الشعر العربي تحديدا عرف شاعرات نضحن بالشعر، وجاء شعرهن لافتا اكثر بكثير مما جاء في شعر الشعراء. نأخذ مثلا الخنساء التي حين رثت اخاها صخر، جاء رثاؤها نابضا بالحياة والمشاعر، وكذلك اي شاعرة عرفها الشعر العربي كولادة بنت المستكفي مثلا او اي شاعرة اخرى. هذا الامر يختلف بين الشاعر والشاعرة. طبعا

انا ضد التمييز في هذا الشأن ولا تختلف عندي شاعرة تكتب او شاعر يكتب.

■ وجدت دائما المرأة في قصائد الشعراء، فهل الرجل في المرتبة نفسها في قصائد الشاعرات؟

□ المرأة موجودة في قصائد الشعراء لانها موضوع اول في ما يكتبه هؤلاء الشعراء. الشعر اجمالا ينقسم الى اثنين، اما المرأة واما الوطن، اي اما الغزل والحب واما القوائد الوطنية. لكن اذا اخذنا شعر المرأة نجده اكثر قربا من مشاعرها سواء مثلا لو اخذنا مي زياده وما كان لها من علاقة مع جبران، او لو اخذنا مثلا نازك الملائكة او الخنساء. حين تتوجد المرأة في الشعر يصبح الشعر ذا بعد آخر. اما عندما المرأة، فننادرا ما يكون غزلها بالرجل بتلك الرقة التي ممكن ان يتغزل بها الرجل بالمرأة. بالتالي، ان غزل الشاعر بالمرأة يختلف عن غزل المرأة بالرجل، وغالبا ما يكون شعر المرأة بالرجل نابضا من الادعاء او من الهجاء او من المشاعر التي لا تكون عادة عند الرجل حيال المرأة. الشاعر عندما يتغزل بالمرأة يجعلها سامية راقية قريبة جدا من الالوهة، بينما المرأة عندما تتغزل بالرجل لا تجعله بهذه المرتبة، بل تضعه على مرتبة متساوية معها في هذا الغزل.

■ اقدم شعر كتبه امرأة، ماذا يعني هذا الاكتشاف؟

□ اهميته اننا لم نكن نعرف ان هناك شاعرة وضعت تلك القوائد وجاء كلامها مفاجئا، لاننا في ذلك العصر القديم لم نكن نعرف ان شعر المرأة موجود بهذا الشكل. هكذا يتبين لنا ان هذه الكتابة الموجودة منذ حوالي ثلاثة الاف سنة قبل الميلاد، في سومر، وقد سبقت كل ما قيل عن المرأة ومن المرأة تجاه الرجل. اهميتها في قدمها وفي اكتشافنا "انهدوانا" في بلاد ما بين النهرين. لقد عرفنا ان ذلك النوع من الشعر كان موجودا في ذلك العصر، وبسبب ما غلفه الظلام والجهل لم نكن ◀

المقال

قوة العسكر الناعمة

يشهد التاريخ في عالمنا العربي ان المرأة العربية عاشت جدلا عقيما حول "اهليتها"، بداية من اسرتها وصولا الى المجتمع ككل، وحقها في التعليم والعمل في الشأن العام وتحديد المهن التي يحق لها العمل فيها.

بين حجج دينية ومواقف اجتماعية، استطاعت المرأة ان تكسر الحواجز والصورة النمطية في بعض المجتمعات، وان تنجح في خرق بعض القطاعات التي كانت حكرًا على الرجال حتى وصلت الى السلك العسكري في عدد من الدول العربية. وعلى الرغم من ذلك، يستهجن البعض وجود المرأة في مهنة تعد ذكورية بامتياز، وفي اعتقادهم ان اللباس العسكري يفقد المرأة انوثتها، فعناصر الهيبة والقوة بحسب رأيهم مرتبطة بالعنصر الذكوري، وبالتالي لا تليق بها هذه الوظيفة. الا انها اثبتت مرارا وتكرارا عدم صوابية هذا الرأي بعد ان نجحت في لبنان كما في دول العالم في انجاز كل ما اسند اليها من مهمات، وهي لا تزال تسعى ان توكل اليها المزيد من المهمات الميدانية لتستثمر ما لديها من قدرات وطاقت.

منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد، كان في تاريخنا البشري نساء محاربات، ولقد كشف التاريخ العسكري عن ادوار متفاوتة، قوة وتأثيرا، لعبتها المرأة في شتى اوجه النزاعات العسكرية، فقد برزت في العديد من حروب التاريخ القديم كقائدة ومقاتلة، او مشجعة للمقاتلين على مواجهة العدو وداعية الى البذل والعطاء، الى جانب تفانيها في اعمال اخرى تتقنها وهي ترافق الجيوش في ساحات القتال في مجال الطبابة والامداد الى غير ذلك من المهن، وقد تمكن المؤرخون من تقصي مشاركات المرأة في مختلف الانشطة العسكرية منذ اقدم العصور.

الجديّة، الانتظام، الالتزام، القسوة، صفات تدخل في اساس العمل العسكري، وقد اتقنت المرأة اظهارها من خلال عملها اليومي في السلك العسكري على الرغم من كل التحديات التي تواجهها. ففي الحياة العسكرية مسؤوليات كبيرة والعديد من المفاجآت، وهي تتطلب عملا متواصلا وتضحية، تماما كالام في البيت.

لا شك في ان الامومة تشكل التحدي الاكبر للمرأة في السلك العسكري كما في الوظائف الاخرى، خصوصا انها تبذل مجهودا لتحقيق التوازن ما بين الواجبين الوظيفي والعائلي. كم من النساء شعرن بالاحباط والتعب، نتيجة سعيهن الى تطوير ذاتهن مهنيًا ورغبتهن في الامومة في الوقت نفسه. هو شعور لم يمنع المرأة في لبنان من اجتياز تجربة السلك العسكري، بثقة وعزم، حتى انها تبوّأت مراكز قيادية عالية محاطة ببيئة حاضنة في مؤسستها التي تفهمت متطلبات الامومة.

ان مسيرة المرأة في المجال العسكري ملهمة، فهي لا تزال تثبت للعالم نجاحها في جميع المجالات وعلى مختلف الصعد. هي قوية بالقدر الكافي للعمل في السلك العسكري، تثبت من خلاله شجاعته وتميزها وجدارتها فيه وفي اي مجال آخر تخوضه.

وتبقى هي المرأة في اي موقع كانت، والدة، او زوجة، او شقيقة، او ابنة، الداعمة والمؤثرة. فالتربية والتدريس والاهتمام بشؤون الحياة، مسؤوليات تتحملها كاملة. بعيدا من الملامح القاسية التي تفرضها بزة تحمل رتبا عسكرية، نجد المرأة المنخرطة في السلك العسكري في قمة الرقة والنعومة في منزلها، واما تفيض بالحنان والعطف... انها قوة العسكر الناعمة.

والمساء عند كوكب الزهرة"، كما ذكرت المحللة النفسانية بيتي دو شونغ ميادور الباحثة اليونغية (نسبة الى العالم النفساني السويسري كارل يونغ 1875-1961). وهي ترجمت الى الانكليزية قصائد انهدوانا في كتابها "انا: السيدة ذات القلب الاكبر - 245 صفحة - منشورات جامعة تكساس (2001). وميادور استاذة التاريخ القديم في كلية كاليفورنيا الجامعية - سان فرانسيسكو. في قصائد انهدوانا، كما تذكر ميادور في مقدمتها للترجمة، تتساوى الالهة انا السومرية مع نظيرتها الاكادية عشتار الهة الحب والحرب. وفي تلك القصائد تظهر الالهة انا شرسة وقاسية، كما تظهر محبة ولطيفة، فهي تمتلك القدرتين معا: التدمير والكرم. وقصائد انهدوانا غنية بعناصر وتفصيل من سيرتها الذاتية، مثل صراعها مع لوغالان، ترجيحها ملك اور، وهو حاول بالقوة تجريدتها من مسؤولياتها، وهي اول مؤلفة تخبرنا كيف تكتب قصائدها. فهي تشبه فعل الخلق الادي بولادة الجنين، وتلك اول استعارة في تاريخ الادب ستستمر طيلة تاريخه حتى اليوم. في كتاب "انا: السيدة ذات القلب الاكبر - قصائد للكهنة السومرية انهدوانا" انشيد انهدوانا المرفوعة الى انا، يظهر فيها تحرر الشاعرة روحيا ونفسيا من كونها ابنة مطيعة لوالدها الملك. في تلك القصائد تتجلى الانظمة الدينية والثقافية في ميزوبوتاميا القديمة، وقدرة انا كاقدم الهة ذات قوة وحضور في العالمين الارضي والسماوي. اهمية هذا الكتاب انه يكشف للمرة الاولى منتخبات نصوص غنية عن حياة النساء في ميزوبوتاميا القديمة ابان الالف الثالث قبل الميلاد، ودورهن في المفهوم الديني للالهات والكاهنات والعبادات، وحضورهن في الاطار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للامهات والعاملات والقائدات. هكذا تميزت بينهن الكاهنة الكبرى والشاعرة انهدوانا، اقدم مؤلفة في التاريخ.

م. ش



تؤنب او تعاقب، واتجاه وجهها يتطلع الى فوق، كما من العالم الارضي الترابي الى عالم انا الخشوعي الروحي.

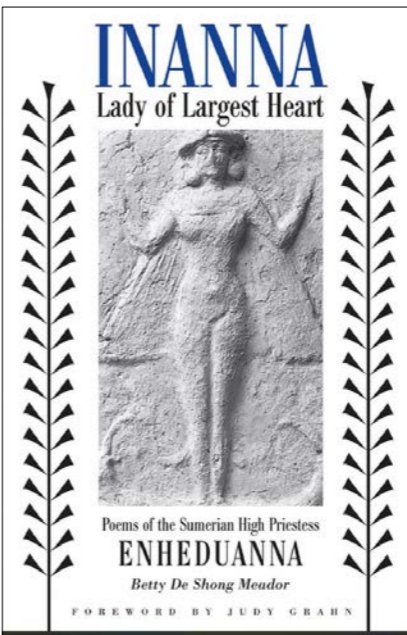
■ ماذا يكشف الكتاب وما اهميته؟
□ للكاهنة انهدوانا قصائد عدة في تمجيد انا اله القمر. لكنها انشغلت اكثر بالالهة انا التي "بيتها في نجمة الصبح

الطلق، على يسارها مبنى من طبقات عدة، وانهدوانا في الوسط مع بعض الفراغ حولها، خلفها كاهنان يحملان اوان طقوسية، وامامها كاهن يرش سائلا مقدسا على مذبح. تبدو انهدوانا تلبس رداء متدرجا ذا اهداب، وتعتمر قبعة بشكل حلقة، وكلا الرداء والقبعة اصبح درجة طقسية لمن جاء بعدها. يتضح من حركة يدها انها

ذاك التعيين جزءا من خطته لتمتين اركان حكمه. وحين تولت مهمتها، بات اسمها "انهدوانا" الذي يعني باللغة السومرية الكاهنة الاولى زينة السماء. بهذه الصفة كزوجة اله القمر وممثلة والدها الملك، باتت اهم شخصية في اور، وتجلت شخصيتها ساطعة اكثر بانها تكتب الشعر، وكان والدها الملك يطلب اليها كتابة انشيد الى انا الهة الحب والحرب والخصوبة. في العصر الحديث ظهرت نصوص انهدوانا سنة 1927 على اسطوانة من مرمر بين اثار سحيفة تم اكتشافها في اور ابان حفريات البعثة الاركيولوجية البريطانية برئاسة عالم الاثار ليونارد ووليز (1880-1960)، حققتها لاحقا الاختصاصية في التاريخ الاشوري القديم لدى جامعة سيدني الباحثة الاسترالية لوز برايك في اطروحتها عن الاسطوانة لنيل الدكتوراه.

■ ماذا يظهر في الاسطوانة من مرمر؟
□ ذكرت برايك في اطروحتها ان الاسطوانة (محفوفة حاليا لدى متحف بنسيلفانيا في فيلادلفيا) تظهر انهدوانا في صدر المشهد، ويظهر اسمها على مقلب الاسطوانة، فيما هي تكرر منصة الالهة السومرية انا في معبدها. هذه الاسطوانة هي الشاهد الوحيد الباقي الذي يظهر فيه اسم انهدوانا وشكلها، ونص يشي بانها زوجة اله القمر نانا وابنة الملك سرجون. النص منقول الى لوح بعد قرون من زمانها، مما يدل على استمرار ارثها طويلا بعدها. يظهر من تلك النسخة ان انهدوانا اهدت هذه الاسطوانة الفريدة الى معبد لتخليد بناءه، وواضح من نصوص تلك الكاهنة انها كانت تمجد الالهة انا اكثر من سائر الهة السومريين. قصائدها في انا هي اقدم نصوص مكتوبة لالهة قديمة. الكتابة على هذه الاسطوانة مأخوذة من نسخة لوح بابلي قديم يرقى الى ما بين 1894 و1595 ق.م. مسجل زمنيا بعد مئات السنوات من قصيدة انهدوانا. والمشهد المحفور على المقطع المقابل في الاسطوانة يمثل باحة مقدسة في الهواء

انهدوانا تشبه فعل الخلق الادي بولادة الجنين وتلك اول استعارة في تاريخ الادب



النصوص الميزوبوتامية لا نعرف كتابها، لكن نص انهدوانا ثابتة نسبته اليها، لانها وقعت اسمها واضحا في نهاية القصيدة الثانية والاربعين".

■ من هي انهدوانا؟
□ هي ابنة الملك سرجون الاكادي (2334 - 2279 ق.م.)، وهو الذي نحو سنة 2300 ق.م. وحد معظم اراضي ميزوبوتاميا تحت رايته، عندما جيوش شمالي ميزوبوتاميا غزت السومريين في جنوبها، مما مهد لقيام الامبراطورية الاكادية، اول امبراطورية في التاريخ توحدت تحت راية قائد واحد. عين سرجون ابنته كاهنة اولى وزوجة نانا اله القمر في مدينة اور السومرية، وكان

نعرف بذلك. لكن هذه الشاعرة ابنة ملك وليست امرأة عادية، وبالتالي يتميز شعرها بقيمة اكبر لأن العصر الذي كانت فيه تلك الشاعرة كان فعلا ظلاميا وذكوريا بشكل عام. هذه الذكورية امحت مع هذه الشاعرة. معروف ان اقدم كتابة في التاريخ ترقى الى 5000 سنة في ميزوبوتاميا القديمة (بلاد ما بين النهرين - العراق اليوم)، ولم يكن معروفا من كان صاحبها، حتى حسرت المكتشفات الحديثة عن اقدم كتابة موجودة وموثقة ترقى الى 3400 سنة قبل الميلاد في سومر، كما دلت ابحاث اخيرة صادرة عن متحف غيتي في لوس انجلس، تشير الى انها مدونة بالكتابة المسمارية القائمة بشكل علامات منقوشة يضغطها جسم صلب على مساحة صلصالية رطبة من الطين.

■ كيف تم اكتشاف ذلك؟

□ في المتداول، ان اقدم الكتابات هي نصوص هوميروس الملحمية وقصائد سافو العاطفية. لكن الاقدم تاريخيا نصوص سبقت تلك اعلاه بألف عام، وهي للاميرة والكاهنة والشاعرة انهدوانا Enheduanna، كما كشفها الاكاديمي ارهان تامور الباحث لدى متحف متروبوليتان للفنون في نيويورك. لقد نال الدكتوراه اخيرا من جامعة كولومبيا على دراساته عن الاثار القديمة في الشرق الاذن القديم، ويتولى حاليا ادارة معرض خاص بالفن القديم في بلاد ما بين النهرين بموضوع "انهدوانا ونساء ميزوبوتاميا: 3400 2000- ق.م.)" لدى متحف مورغان في نيويورك (افتتح المعرض في تشرين الاول الماضي ويستمر حتى نهاية شباط 2023). وفي بحث متخصص عن تلك الفترة، ورد ان القول بـ"اقدام كاتبة في التاريخ يعني اول مؤلفة معروفة بالاسم وصلنا منها نص موثق"، كما ذكر الباحث بنيامين فوستر في دراسته المعمقة، وهو الاختصاصي بالاثار الاشورية لدى جامعة يال (في ولاية كونيتيكت الاميركية)، ويضيف: "سائر